المحاضرة 08 شعر الزهد والتصوف

أولا: الزهد:

تمهيد:

يميل بعض الدارسين للأدب الجاهلي وتاريخه، وقضاياه أن الزهد قضية دينية قديمة، كان ينادي به المتدينون أو بعض معتنقي الديانات النصرانية. حيث نجد أن فؤاد أفرام البستاني يذهب إلى القول بهذا الرأي، في دراسته للزهد في الشعر الجاهلي: "وإذا اجتزنا ذكر الفناء إلى نوع الزهد في الدنيا، نرى أمية بن أبي الصلت يرفع لواءه، فيستكُّ بالأصنام، ويحرم الخمر، ويلبس المسوح، وينادي بالحنيفية وهي دين قوم من العرب يزعمون أنه دين إبراهيم الخليل"[1].

وهذا الزعم من فؤاد أفرام البستاني لا يمكن أن يقابل بالرفض، فهناك آثار أدبية من أشعار الجاهليين تدعمه، وتؤيده، فقد روي عن أمية بن أبي الصلت أبيات تحمل معاني الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها، لأنها فانية، ومن أقواله الشعرية:[2]

كُلُّ ديـــــن يـــــوم القيامـــــة عنـــــد الـــــ ـــــلّهِ إلاَّ ديـــــــــــن الحنيفـــــــــــة زور

وقال في فناء البشر:[3]

وكُلُّ مُعَمِّـــــــــــرٍ لابـــــــــد يومـــــــا وذي دنيـــــــــــا يصـــــــــــير إلى زوال
ويفـــــــنى بعـــــــد جِدَّتِـــــــهِ ويَـــــبْلَى ســـــوى البـــــاقي المقـــــدَّس ذي الجـــــلال

والحق أن نزعة الزهد بدأت مع صدر الإسلام، يقول شوقي ضيف: تتردد في القرآن الكريم دائما الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح، فالمسلم الحق من عاش للآخرة، ورفض عرض الدنيا. فلم يأخذ منه إلى بحظ محدود، حظ يقيم أوده، ويعده للكفاح في سبيل الله"[4].والقرآن الكريم يميل إلى ذم الدنيا وزينتها، ويقلل من شأنها، لأنها زائلة، فانية،فهي ليست دار بقاء يطمئن إليها المؤمن، بل هي مجرد معبر إلى الدار الآخرة، التي وصفها الله بأنها دار المقام والخلود، ومن ثم فنحن إزاء ثنائية ضدية هي الدين والدنيا.

وقد لقيت هذه الدعوى صدى كبيرا في نفوس المسلمين، "فلقد أضاءت هذه الدعوة والمواعظ القرآنية بنورها قلوب المسمين الأوائل، وملأت صدورهم وضمائرهم بمثالية روحية سامية، تمثلت بالعبادة والتبتل ومجاهدة النفس ورياضتها في الصوم والصلاة؟، فمال كثير من الصحابة الذين رافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الزهد والتقشف،

---

(1)- فؤاد أفرام البستاني: الشعر الجاهلي، نشأته- فنونه- صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1927، ص26.
(2)- أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، تح. احسان عباس، وآخرون، (ط1)، دار صادر بيروت، لبنان، 2002، المجلد الرابع، ص97.
(3)- أمية بن أبي الصلت: ديوان أمية بن أبي الصلت، سجيع جميل الجبيلي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص101.
(4)- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، (ط6)، دار المعارف، بمصر، القاهرة، 1973، ص369.

معرضين عن مغريات الحياة الدنيا وحطامها الزائل، داعين إلى الجهاد والعمل المثمر، مقتدين بزاهد الأمة الأول"[1].وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في الزهد والورع، وذم الدنيا، ورأينا الكثير منهم لا يلقي لها بالا ولا يجتهد في تحصيل ما فيها من لذة ومتاع، ذلك أنهم تأثروا بعمق بالآيات القرآنية التي تدعوا إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة، والعمل لنيلها فهي دار الخلود.

بدايات الزهد في العصر العباسي:

إذا كان الدكتور شوقي ضيف يرجع تاريخ الزهد في الشعر العربي إلى العصر الأموي، فإن الدكتور محمد مصطفى هدّارة يرى أن ما قيل من أشعار في غرض الزهد، على لسان شعراء العصر الأموي، ما هو إلا إرهاصات أو مقدّمات ليس إلا، يقول: "ونحن وإن كنا نتفق مع شوقي ضيف في أكثر من موضع في حديثه عن نشأة الزهد وظهوره في الشعر الأموي، إلا أننا نرى أن مثل هذه الأشعار التي ظهرت في القرن الأول ليست هي الشعر الزهدي الذي ظهر في القرن الثاني، وأنها تختلف عنه اختلافا جوهريا لا يمكن التغاضي عنه، بحيث يمكننا أن نعتبر هذا الشعر الذي توجد فيه عناصر من الزهد والتقوى والإيمان والذي ظهر في القرن الأول، إرهاصا للشعر الزهدي الذي برز في القرن الثاني وكان اتجاها جديدا من اتجاهات الشعر العربي"[2].وقد بنى الدكتور مصطفى هدارة هذا الرأي على أساس الخصائص التي تفرق بين العصرين؛ الأموي والعباسي من حيث الثقافة والانتماء إلى الإسلام نفسه. وأن العصر العباسي هو عصر عرف ثورة فكرية وأدبية وسياسية، عملت على بروز الجديد في كل نواحي الحياة، وكان شعر الزهد أحدها، وبهذا يرى أن الظهور الحقيقي لغرض الزهد كان في العصر العباسي، يقول: "وأول حقيقة ينبغي التنبه إليها أن الزهد في القرن الثاني إنما هو مذهب له خصائص معينة وله أصول وعناصر يرتكز عليها، وليس مجرد ميل فطري إلى الزهادة وتقوى الله، أو حالة من حالات الإيمان يصورها الشاعر، كما يصور أي شعور ينتابه أو يعرض له"[3]، وبهذا يميز الدكتور مصطفى هدارة بين الزهد الذي هو فطري، والزهد كموضوع شعري مستقل.

وعن سبب نشأة الزهد تقول الدكتورةزينب سيد نور: "يمكن القول بأن الزهد في العصر العباسي كان بسبب أمرين ظاهرين: الأول أنه ردة فعل مباشرة على ما كان يشيع في المجتمع من مجون وفسق، فقد كان المجتمع آنذاك فيه عدة جوانب اجتماعية: مجتمع مسجد، وفيه حلقات الوعظ والارشاد، ومجتمع قصر الخلافة، وفيه خلط بين الوعظ والارشاد حينا، ومجتمع السمر واللهو، ومجتمع الحانات ودور القيان، وما فيها من مجون وفسق وانحلال"[4].

وهذا الأمر طبيعي في المجتمع العباسي الذي تتصارع فيه الثقافات، والعادات والتقاليد المتنوعة، بتنوع الأجناس البشرية، فهو عصر امتزاج الثقافات والتوجهات، فإذا كان لتيار اللذة والمتعة مناصروه، فإن لتيار الزهد مناصرون أيضا. وهما دون شك متناقضان.أما الأمر الثاني، "فهو تسرب فكري متعمد من قبل زعماء التيارات الفكرية الفاسدة مثل المانوية، وكذلك هو تأثر بالعقائد المجاورة اجتماعيا مثل النصرانية حيث يوجد لهم اختلاط مع المسلمين، ولابد من أثر

---

[1]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، (ط1)، دار التميز للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996، ص16.

[2]- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963، ص284.

[3]- المرجع نفسه، ص 284.

[4]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016، ص21.

لهذا الاختلاط"[1].فالتأثر بعقائد الأمم التي سيطرت عليها الدولة الاسلامية في العصرين الأموي والعباسي واضح في هذا العصر على وجه التحديد. ويرى شوقي ضيف أن تأثر الزهد الاسلامي بالزهد المسيحي موجود، لا يمكن إنكاره، إلا أنه يفرق بينهما، من جهة التوجه الذي يقوم عليه كل منهما، يقول في هذا: "ونحن لا نمنع التأثر العام، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الاسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره، إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والاسلام لا يقر هذه الفكرة وما تؤدي إليه من تعذيب الجسد، فإن لبدن المسلم عليه حقا، ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن العزوبة، بينما دعت إليه المسيحية"[2].

وبناء على هذا، فإن الزهد موجود في كل الديانات، باعتباره نزعة روحية، يتركز في المقومات الدينية والتعاليم التي تقوم عليها، وبهذا ترى الدكتورة زينب سيد نور أن للزهد ثلاثة أوجه، هي[3]:

أولا: زهد ديني صحيح، يخلص فيه المرء دينه لله.

ثانيا: زهد مال إليه نفر من الناس بسبب الحرمان.

ثالثا: زهد مانوي مارق، وهذا الذي يمكن ربطه بالبوذية.

أما الأستاذ عبد الهادي الفكيكي، فينكر هذا الرأي، ويرى أن الزهد كان أثرا من آثار القرآن في اللغة العربية وآدابها عامة، فيقول: "إن الزهد في الشعر العربي شاع في الصدر الأول من عصر الرسالة فكان أثرا من آثار القرآن (...) أما قول بعض الأدباء الدارسين: إن أبا العتاهية هو الذي نهج الشعراء منهاج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها، وما عرضه بعضهم بما يوحي للقارئ أنه وليد العصر العباسي، مما أفرزته الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تردت منذ عهد "المهدي" خاصة، فليس دقيقاً، بل هو رأي غير صحيح"[4]. ويمكن أن يكون هذا الرأي قريبا من الحقيقة إذا اعتبرنا أن هؤلاء الزهاد يعيشون خارج إطار الظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفها العصر العباسي.ومهما يكن من أمر نشأة الزهد وأسبابه، فإن بين أيدينا تراثا شعريا في موضوع الزهد يمكن دراسته وفق المناهج النقدية المعاصرة، وهي وحدها التي يمكنها أن تميط اللثام عن قضايا الزهد.

موضوعات الزهد في الشعر العباسي

تمهيد:

تعددت موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، تعددا ينم عن الثقافة الواسعة التي يتمتع بها شعراء الزهد، كما ينم عن تأثرهم الكبير بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، باعتبارهما أهم المصادر الدينية التي أسهمت بشكل واضح في بلورة التجربة الشعرية لدى الزهاد مما سهل عليهم الخوض في موضوعات كثيرة، لا تخرج في جملتها عن دائرة الوعظ والتزهيد في الدنيا وفيما يلي بعض الموضوعات الزهدية، وهي كالآتي:

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي، ص21.

[2]- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، (ط8)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ص86.

[3]- زينب سيد نور: المرجع السابق، ص22.

[4]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، ص 18-19.

أ- الموت: يعد الموت من أكثر الموضوعات شيوعا في شعر الزهد زمن العصر العباسي، فقد "أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به، واعتبروه النهاية المحتومة التي لا مهرب منها، ولا يمكن جحدها، ولا يملك أحد ردّها ولها وقت معلوم لا تستقدم عنه ولا تستأخر"[1]. ومن نماذج الحديث عن الموت ما جاء في شعر الصنوبري:[2]

ما ولدت نفس أرضعت ... ما نوهت نفس ولا متعت
ما قدرت أرزاق أيامنا ... فضيقت في القدر أو وسعت
إلا لتدعى عن ميقاتها ... حتى إذا ما دعيت أسرعت

وقوله أيضا:[3]

أذكر الموت واعتبر ... واصدق النفس وازدجر
من سيمضي إلى القبو ... ر غدا مثل من قبر

ويقول في ذكر الموت الذي لا مفر منه:[4]

كم اختطف الردى من فوق حصن ... كم انتزع الردى من فوق سور
وكم ممن غدا فوق الحشايا ... وبات مغيبا تحت الصخور
وكم لك من أخ قد سار أو من ... أخ سيسير عنك على سرير

في هذا السياق يؤكد أبو العتاهية على حتمية الموت الذي لا يقف في طريقه حرس أو إنس أو جن، فيقول:[5]

ما يدفع الموت أرصاد ولا حرسُ ... ما يغلب الموت جنّ ولا أنس
ما إن دعا الموت أملاكا ولا سوقا ... إلا ثناهم إليه الصرع والخلس
للموت ما تلد الأقوام كلهم ... وللبلى ما بنوا، وما غرسوا
هلاّ أبادر هذا الموت في مهل ... هلا أبادره ما دام لي نفس
يا خائف الموت! لو أمسيت خائفه ... كانت دعوعك طوال الدهر تنبجس

وقد أكثر الشاعر أبو العتاهية من ذكر الموت في شعره الزهدي باختصاصه في الزهد، وفاق فيه كل شعراء العصر العباسي الذي عاش فيه.

---

(1)- نزار عبد الله الضمور: الزّهد في الشعر العباسي، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص58.
(2)- الصنوبري: ديوان الصنوبري، تح. احسان عباس، ط1، ر صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص292.
(3)- المصدر نفسه، ص 84.
(4)- المصدر نفسه، ص 85.
(5)- أبو العتاهية: يوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص 224.

2- **التنفير من الدنيا:** ارتبط ذم الدنيا والتنفير منها بشعر الزهد، فكان الشعراء يزهدون الناس فيها وبخاصة أولئك الذين غلبت عليهم النزعة الزهدية في أواخر حياتهم، ومنهم أبو العتاهية الذي كان يذم الدنيا ويزهد في نعيمها، ويعيب على من يغره رونقها، ويطغيه زبرجها"[1]، يقول أبو العتاهية:[2]

لعمـــرك، مـــا الدنيـــا بـــدار بقـــاء ... كفـــاك بـــدار المـــوت دار فنـــاء
فـــلا تعشـــق الدنيـــا أُخيَّ فإنمـــا ... يـــرى عاشـــق الدنيـــا بجهـــد بـــلاء
حلاوتهـــا ممزوجـــة بمـــرارة ... وراحتهـــا ممزوجـــة بعنـــاء
فـــلا تمـــش يومـــا في ثيـــاب مخـــيلة ... فإنـــك مـــن طـــين خلقـــت ومـــاء

ولأبي جعفر القرشي كلام جميل، يذم فيه الدنيا، يقول فيه:[3]

يا عاشـــق الدنيـــا ولـــد ... نيـــا ســـمادير وســـكر
اسمـــع لموعظـــة الزمـــا ... ن فمـــا بســـمعك وقـــر
كم قـــد مضى مـــلك له ... نظـــر إلى الجلســـاء شزر
وله مباهـــاة بمـــا ... لم يبـــق فيـــه له فخـــر

3- **القناعة:** القناعة هي الرضا بالقليل من أمور الدنيا، الحلال الذي يعز صاحبه خير من الكثير الحرام، وقد حث الإسلام على القناعة ورغب فيها، وقد تأثر الشاعر العباسي بتعاليم الدين، وأصبح يحث الناس عليها؛ فهذا "أبو العتاهية يفضل الرضا بالقليل، مع الكرامة على الكثير مع الهوان والذل، فرغيف خبز وكوب ماء، وغرفة ضيقة، ومسجد معزول تكعف فيه، خير من الكثير، إنها القناعة بما قسم الله له"[4]. ومن النماذج الشعرية الزهدية، التي تناولت هذا الموضوع قول أبي العتاهية:[5]

رغيـــف خـــبر يابـــس ... تأكلـــه في زاويـــة
وكـــوب مـــاء بارد ... تشربـــه مـــن صـــافية
وغرفـــة ضـــيقة ... نفســـك فيهـــا خاليـــة
أو مســـجد بمعـــزل ... عـــن الـــورى في ناحيـــة
تـــدرس فيـــه دفـــترا ... مســـتندا بســـارية
معتـــبرا بمـــن مضى ... مـــن القـــرون الخاليـــة

---

(1)- محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1937، ج2، ص 452.

(2)- أبو العتاهية: ديوان أبو العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص12.

(3)- ابن أبي الدنيا: "موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا"، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1993، ج2، ص 75-76.

(4)- حسن فالح البكور: دراسات في الشعر العباسي الرؤيا والتشكيل، دار الخليج، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص30.

(5)- عبد العزيز المحمد السلمان: مجموعة القصائد الزهديات، (ط1)، مطابع الخالد للأوفيست، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج2، ص 315.

ومن الشعر الذي يحث على القناعة، قول الشاعر العباسي محمود الوراق:[1]

إن القناعـــــة مـــــا علمـــــت غـــــنى والحـــــرص يـــــورث ذا الغـــــنى فقـــــرا

ومن أقوال أبي العتاهية في القناعة أيضا:[2]

وسربلـــــت أخـــــلاقي قنوعـــــا وعفـــــة فعنـــدي بـــأخلاقي كنـــوز مـــن الذهـــب
فـــــلم أر حظّـــــا كالقنـــــوع لأهـــــله وأن يجمـــل الانســـان مـــا عـــاش في الطلـــب
وتمـــــــرّ أزمنـــــــة بنـــــــا يمـــــضي بهـــــا شـــــهر وشـــــهر
وتمـــــــر فينـــــــا الحـــــــادثا ت لهـــــا نبـــــاطي ونـــــشر
ويكـــــون مـــــن يبـــــني القصـــــو ر يضـــــمه مـــــن بعـــــد قـــــبر
والدهـــــــر فيـــــــه عجائـــــــب مـــــن وصـــــفه شـــــفع ووتـــــر
وعـــــوابر الدنيـــــا تمـــــر عـــــ ليـــــك وأنـــــت لهـــــن جـــــسر
ولـــــربّ حـــــال بـــــين صـــــا حبهـــــا وبـــــين المـــــوت فقـــــر
ومـــــن يفـــــك لعاشـــــق الدّ نيـــــا مـــــن الشـــــهوات أسر

ومن ذم الدنيا قول أبي العتاهية:[3]

طلبتـــك يا دنيـــا فأعـــذرت في الطلـــب فمـــا نلـــت إلا الهـــمّ والغـــمّ والنّصـــب
فلـــما بـــدا لي أنـــني لســـت واصـــلا إلى لذة إلا بأضـــــعافها تعـــــب
وأسرعـــت في ديـــني، ولم أقـــض بغيـــتي هربـــت بـــديني منـــك، إن نفـــع الهـــرب
تخليـــت ممـــا فيـــك جهـــدي وطـــاقتي كـــما يـــتخلى القـــوم مـــن عـــرة الجـــرب
فمـــا تم لي يومـــا إلى الليـــل منظـــر أسرّ بـــه، إلا أتى دونـــه شـــغب

من خلال هذه النماذج لشعرية نجد أن شعر الزهد كام منصبا في بعض موضوعاته على ذم الدنيا الفانية، وعلى التحذير منها، فهي لم تصف لأحد من الناس، فلا يثق فيها إلا مغرور جاهل، قد فتن بزا. ولم يخل يوان شعري لشعراء العصر العباسي من قصائد تحط من قيمة الدنيا وتزهد في نعيمها.

4- التوبة والإنابة:التوبة من أهم الموضوعات أو القضايا التي كثر الحديث عنها في شعر الزهد العباسي، ومعناها: "الرجوع إلى الله بحل عقدة الاصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب"[4]، وهي أيضا تعني العبد على ذنوب ن قد ارتكبها ولإقلاعه عنها، ومن المعلوم ن الله يرغب المؤمنين به إلى التوبة وبهذا هما "من الأخلاق الاسلامية دعا إليها ديننا الاسلامي الحنيف وعموده القرآن الكريم، فلقد ارتبطت التوبة بصفات المسلمين العائدين إلى رحاب الرحمة الإلهية أخطاء

---

(1) محمود الوراق: ديوان الزهد والحكمة، شعر محمود الوراق، جمع وتحقيق، أيمن السيد علي الصياد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص 67.

(2)- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص49.

(3)–المرجع نفسه، ص49.

(4)- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص65.

أو ذنوب ارتكبوها لحظات من الضعف أو النسيان أو اللهو أو السهو"[1]؛ والنفس أمارة بالسوء قد تغلب المؤمن، هو ضعيف وخطاء بطبعه، لكن المؤمن سرعان ما يعود إلى ربه تائبا مستغفرا قبل أن يدركه أجله وقد عبر أبو العتاهية عن موضوع التوبة في شعره الزهدي، مرغبا فيها، حيث يقول:[2]

خانـــــك الطـــــرف الطمـــــوح	أيهـــــا القلـــــب الجمـــــوح
لدواعـــــي الخـــــير والـــــشّر	دنـــــــو ونـــــــزوح
هـــــل لمطلـــــوب بـــــذنب	توبـــــة منـــــه نصـــــوح
لتمـــــــوتنّ وإن عمـــــــرت	مـــــا عمّـــــر نـــــوح

وما دام أبو العتاهية يتكلم على التوبة النصوح، فإنه يتخذ من القرآن الكريم مصدرا يقتبس منه المعاني والألفاظ، من قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري منتحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير" (سورة التحريم، الآية: 08).

ومن شعر التوبة الذي يدعو الشاعر فيه نفسه إلى التوبة من ذنوب اقترفها، ويستغفر ربه ويتوب إليه ما روي من أبي القاسم بن يوسف، في قوله:[3]

إلى الله مـــــن عـــــودتي تـــــوبتي	أتـــــوب إليـــــه واســـــتغفره
وأثـــــني عليـــــه بآلائـــــه	ثنـــــاء الشـــــكور ولا أكفـــــره
وأخلـــــع مـــــن دونـــــه مـــــن دعـــــا	إلهـــــا ســـــواه ومـــــن يفجـــــره
واســـــتغفر الله ممـــــا جنيـــــت	ومـــــا قـــــد نســـــيت ومـــــا أذكـــــره
ومـــــا أحـــــاط بـــــه علمـــــه	وأتقنـــــه كاتـــــب يســـــطره
لألقـــــى الاله ولا ذنـــــب لي	أســـــائل عنـــــه ولا أحـــــذره
إذا كان يـــــأتي الذي لا يريـــــب	ويـــــترك منـــــه الذي يفجـــــره
كـــــذاك روينـــــا عـــــن المصـــــطفى	وأصحابـــــه في الذي ناثـــــره

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن معانيها مأخوذة من القرآن الكريم، في قول الله عز وجل: "إلّا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما" (سورة الفرقان، الآية: 71).مما نلاحظ حول موضوع التوبة في شعر الزهاد أن معجمه اللغوي والشعري يعتمد على القرآن الكريم في استلهام الألفاظ والمعاني المتعلقة بالاستغفار من الذنب والعودة إلى الله قبل فوات الأوان.

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، ص65.

[2]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، 1965، ص 97-99.

[3]- أبو بكر الصولي: كتاب الأوراق، قسم أخبار الشعراء، تح. "ج. هيورث د ن"، ط1، مطبعة الصاوي، مصر، 1934، ص149.

5- الوعظ والنصح:النصح والارشاد من أهم موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، حيث يستلهم الشاعر ألفاظه ومعانيه من التراث الإسلامي، في مصدريه: القرآن والحديث والسنة النبويةوالوعظ في أصله من أعمال الوعاظ والخطباء الذين ساهموا في توفير المعاني للشعراء، كما يرى شوقي ضيف حيث يقول: "وممن يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي يصوغوا على نمطها مواعظ تذكر الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس"[1]؛ فهذا الموضوع الشعري يعتمد على منجزات الوعاظ من العلماء والزهاد، الذين تحقق فيهم الزهد قولا وعملا[2].وللوعظ أساليب يستخدم فيها ذكر الموت وحوادث الزمان، والحث على الصبر، والجهاد في عمل الخير إلى غير ذلك من المعاني، ومن القصائد الوعظية ما جاء في كتاب "التبصرة في الوعظ"، حيث يقول أحد الشعراء:[3]

اصبر لمرّ حوادث الدهر ... فلتحمدن مغبّة الصّبر
واجهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأنّ أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصّدر
وكأنهم قد قلبوك على ... ظهر السرير وأنت لا تدري
وكأنهم قد زودوك بما ... يتزود الهلكى من العطر
يا ليت شعري كيف أنت على ... نبش الضريح وظلمة القبر
ويا ليت شعري كيف أنت إذا ... غسّلت بالكافور وبالسّدر
يا ليت شعري ما أقول إذا ... وضع الكتاب صبيحة الحشر
ما حجتي فيما أتيت على ... علم ومعرفة وما عذّري
يا سوأتا مما اكتسبت ويا ... أسفي على ما فات من عمري
ألّا أكون عقلت شأني فاستقبلت ... ما استدبرت من أمري

ومن شعر الوعظ، قول أبي العتاهية:[4]

قد سمعنا الوعظ لو ينفعنا ... وقرأنا جلّ آيات الكتب
كلّ نفس ستوفّى سعيها ... ولها ميقات يوم قد وجب
جفت الأقلام من قبل بما ... ختم الله علينا وكتب
كم رأينا من ملوك سادة ... رجع الدّهر عليهم فانقلب
وعبيد خوّلوا ساداتهم ... فاستقر الملك فيهم ورسب
لا تقولن لشيء قد مضى ... ليته لم يك بالأمس ذهب

---

(1)- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ط8، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص400.

(2)- ينظر، مازن طلال الناصر: المنظومات التعليمية في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص137.

(3)- عبد الرحمان بن الجوزي: التبصرة، تح. مصطفى عبد الواحد، ط1، دار السلام، القاهرة، مصر، 2012، ج1، ص38.

(4)- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965، ص 29-30.

ويقول أبو العلاء المعري:[1]

وعـــظ الزمـــان فمـــا فهمـــت عظاتـــه	وكأنـــــه في صمتـــــه يـــــتكلم
لـــو حاورتـــك الضـــأن قـــال حصـــيفها	الذئـــب يظـــلم وابـــن آدم أظـــلم
صـــبرا عـــلى دنيـــاك يـــنقض حينهـــا	فكأنهـــا حـــلم بنـــوم يحـــلم
ولربمـــا قضـــت الأناة مـــآربا	مـــن نازح ولـــكل عـــال ســـلّم
كل تســـير بـــه الحيـــاة ومـــا له	عـــلم عـــلى أي المنـــازل يقـــدم
ومـــن العجائـــب أننـــا بجهـــالة	نبـــني وكل بنـــاء قـــوم يهـــدم
وأضـــيع أوقـــاتي بغـــير ندامـــة	ويفـــوتني الشيـــء اليســـير فأنـــدم

يعتمد الوعظ في شعر الزهد العباسي على أصول الدين الإسلامي ومفاهيمه، وأول هذه الأصول هو القرآن الكريم، حيث يوفر للشاعر معجما لغويا ثريا بالألفاظ الدالة على حقل الزهد، والمعاني التي تحمل كل الدلالات المرتبطة به، حيث "تتردد المعاني التي تدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح"[2]. وقد وردت في الشواهد الشعرية السابقة مجموعة من المعاني الوعظية، نجملها فيما يأتي:

- الصبر على حوادث الدهر وصروفه.
- التذكير بالموت والقبر وحياة البرزخ.
- التخويف من لحظة خروج الروح من الجسد.
- التذكير بيوم البعث والحساب على الأعمال.
- بيان حقيقة الدنيا وزوالها وانقلابها على أهلها.

6- الشيب: الشيب من الموضوعات التي أخذت حيزا لا بأس به في الشعر العربي القديم، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ومن المعلوم أن للشيب أثرا كبيرا في نفس الشاعر الذي يبدي قلقا وتخوفا. أمام الشيب كونه علامة على ذهاب الشباب ودخول الشاعر في الشيخوخة واقترابه من الموت، وهذا ما يعترف به الدكتور أحمد علي الفلاحي، بقوله: "لذلك نرى أن ظهور الشيب في رأسه جعل هاجس الخوف من الموت ملازما له فكان يكثر من تصوير الشيب الذي يعني له بداية النهاية أو الاقتراب من الموت"[3]؛ وهذه الفكرة يندرج تحتها ما قيل من شعر سواء أكان في موضوع الزهد أم في غيره من

---

[1]- أبو العلاء المعرّي: ديوان اللزوميات، تح. د. عمر الهباع، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج1، ص288-289.

[2]- يونس اللهيبي: أدب زهاد التابعين موضوعاته وفنونه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص209.

[3]- أحمد علي الفلاحي: الصورة في الشعر العربي، (ط1)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص86.

الموضوعات، مع اختلاف في الطرح والتعبير والتصوير- ومن نماذج موضوع الشيب في شعر الزهد، قول أبي العتاهية وهو يشكو ألم الشيب، ويبكي على شبابه:[1]

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكأن غصنا ... كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

ويقول أيضا:[2]

رأيت الشيب يعروكا ... بأن الموت ينحوكا
فخذ حذرك يا هذا ... فإني لست آلوكا

ويقول أيضا:[3]

كبرنا أيها الأتراب حتى ... كأنّا لم نكن حينا شبابا
وكنا كالغصون إذا تثنت ... من الريحان مونعة رطابا
إلى كم طول صبوتنا بدار ... رأيت لها اغتصابا واستلابا
ألا ما للكهول وللتصابي ... إذا ما اغترّ مكتهل تصابا
فزعت إلى خضاب الشيب مني ... وإن نصوله فضح الخضابا
مضى عنّي الشباب بغير ردّ ... فعند الله احتسب الشبابا
وما من غاية إلّا المنايا ... لمن خلقت شبيبته وشابا

تشكل ثنائية الشباب والشيب في شعر الزهد بصفة عامة، وفي شعر أبي العتاهية بصفة خاصة، ثنائية الحياة والموت؛ فالشباب عنده يعني الحياة وأما الشيب فيعني الموت والفناء، والتعلق بالشباب في الواقع تعلق بالحياة وتشبث بها، والفزع من المشيب خوف من الموت، وأبو العتاهية دائما لا يرى في الشيب سوى الناعي الذي ينذر بدنو الأجل، ويدفع الإنسان إلى حتفه في صراع عجيب بين اندفاع إلى هاوية الموت ملح شديد وبين تشبث بالحياة يائس"[4].وقد كان الصراع بين الشباب والشيب منذ الأزل، وكانت الغلبة في النهاية للشيب، لهذا كان أبو العتاهية يقف من الشيب موقفا يدل على حيرته وخوفه منه لأنه يعني له قرب النهاية، فهو نذير الموت.

7- الحكمة:تعد الحكمة من أهم القضايا والموضوعات في الشعر العربي بصفة عامة، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ويعرفها الدكتور محمد التونجي بأنها: "تجربة وقع بها الناس فعرضها الحكماء نثرا والشعراء نظما، ولقد استنتجوا من خلال تجاربهم

---

[1]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[2]– أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[3]- المرجع نفسه، ص32.
[4]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، ص158.

واصطدامهم بأحداث الواقع حكما ترجموها كلاما بلاغيا، وألبسوها أسلوبا فنيا، وصبوها في أشعارهم بإيجاز وتماسك"[1].
وقد تركمت الحكمة في الشعر العربي بتوالي العصور من الجاهلية إلى صدر الإسلام والعصر الأموي.ولما جاء العصر العباسي عرفت الحكمة –كموضوع شعري- تطورا ملحوظا حيث أصبح بعض الشعراء يخصون الحكمة بقصائد كاملة، وتأتي مستقلة عن بقية موضوعات الشعر الأخرى، كما توسعت الموضوعات التي طرقتها الحكمة فمست كل جوانب الحياة المتعلقة بالدنيا في نواحيها الاجتماعية والسياسية والدينية. ومن شعر الحكمة المرتبط بالزهد قول أبي العتاهية:[2]

أَذَلَّ الحِـــرْصُ والطَّمَـــعُ الرِّقـــابَا ... وقَـــد يَعفـــو الكَـــريمُ، إذا اســـتَرَابَا
إذا اتَّضَـــحَ الصَّـــوابُ فـــلا تَدْعُـــهُ ... فإنّـــكَ كلّـــما ذُقـــتَ الصّـــوابَا
وَجَـــدْتَ لَهُ عـــلى اللّهَـــواتِ بَـــرْداً ... كَـــبَرْدِ المـــاءِ حِـــينَ صَـــفَا وطَـــابَا
ولَـــيسَ بحـــاكِمٍ مَـــنْ لا يُبَـــالي ... أَأَخْطـــأَ فِي الحُكومَـــةِ أمْ أَصَـــابَا
وإن لـــكل تلخـــيص لوجهـــا ... وإن لـــكل مســـألة جـــوابا
وإنّ لـــكُلّ حادِثَـــةٍ لوَقْتـــاً ... وإنّ لـــكُلّ ذي عَمَـــلٍ حِسَـــابَا
وإنّ لـــكُلّ مُطّلَـــعٍ لَحَـــدّاً ... وإنّ لـــكُلّ ذي أجَـــلٍ كِتـــابَا
وكل سَـــلامَةٍ تَعِـــدُ المَنَـــايَا ... وكلُّ عِـــمارَةٍ تَعِـــدُ الخَـــرابَا
وكُلُّ مُمَـــلَّكٍ سَيَصِـــيرُ يَوْمـــاً ... ومـــا مَلَكَـــتْ يَـــداهُ مَعـــاً ثُـــرابَا
أبَـــتْ طَرَفـــاتُ كُلّ قَريـــرِ عَـــينٍ ... بِهَـــا إلاَّ اضـــطِراباً وانقِـــلاَبا
كأنَّ محَاسِـــنَ الدُّنيـــا سَرَابٌ ... وأيُّ يَـــدٍ تَناوَلَـــتِ الـــسّرابَا
وإنْ يـــكُ منيَـــةٌ عجِلَـــتْ بـــشيءٍ ... تُـــسَرُّ بـــهِ فـــإنَّ لَهَـــا ذَهَـــابَا
فَيـــا عَجَبَـــا تَمـــوتُ، وأنـــتَ تَبـــني ... وتتَّخِـــذُ المَصَـــانِعَ والقِبَـــابَا
أرَاكَ، وكُلَّـــما فَتَّحْـــتَ بَاباً ... مِـــنَ الدُّنيَـــا فَتَّحَـــتَ عليْـــكَ نَابَا
أَلَـــمْ تـــرَ أنَّ غُـــدوَةَ كُلِّ يـــومٍ ... تزِيـــدُكَ مِـــنْ منيَّتِـــكَ اقـــترابَا
وحُـــقَّ لمـــوقِنٍ بالمـــوْتِ ألاَ ... يُسَـــوّغَهُ الطّعـــامَ، ولا الـــشّرَابَا
يـــدبِّرُ مَـــا تَـــرَى مَـــلْكٌ عَزِيـــزٌ ... بِـــهِ شَـــهِدَتْ حَوَادِثُـــهُ وغَـــابَا
أَلَـــيسَ اللهُ مـــن كُلِّ قَريبـــاً؟ ... بـــلى مـــن حَيـــثُ مـــا نُـــودي أجـــابَا
ولَـــمْ تَـــرَ ســـائلاً للهِ أكْـــدَى ... ولَمْ تَـــرَ رَاجيـــاً للهِ خَـــابَا
رأَيْـــتَ الـــرُّوحَ جَـــذْبَ العَـــيْشِ لَمّـــا ... عرَفـــتَ العـــيشَ مخضـــاً، واحـــتِلابَا
ولَسْـــتَ بغالِـــبِ الشَّـــهَواتِ حَـــتَّى ... تَعِـــدُّ لَهُـــنَّ صَـــبْراً واحْتِسَـــابَا
فَـــكُلُّ مُصِـــيبةٍ عَظُمَـــتْ وجَلَّـــت ... تَخِـــفُّ إذَا رَجَـــوْتَ لَهَـــا ثَـــوَابَا

---

[1]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ج1، ص376.
[2]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص 30 وما بعدها.

فقد حاول أبو العتاهية أن يغطي جوانب عدة من حياة الناس، بهذه القصيدة؛ حيث يقدم فيها مجموعة كبيرة من الحكم في قالب شعري يتسم بالإيجاز والوضوح، وقوة الفكرة، من خلال اعتماده على مجموعة من الحقائق والبديهيات التي لا يختلف حولها الناس؛ إذ هي من واقع حياتهم الدينية والاجتماعية، مستغلا التراث الديني؛ من قرآن وحديث نبوي شريف، معتمدا في كل هذا على فكرة الفناء والموت التي تبرز من حين لآخر في ثنايا الأبيات.

الخصائص الفنية لشعر الزهد:

حظي شعر الزهد بعناية النقاد والدارسيّن، فقد حدّدوا موضوعاته، وقضاياه، واستنبطوا خصائصه الفنية التي يتميز بها والتي تجعله ذو مكانة مرموقة عند جميع المتلقين؛ فقد تناول الدكتور نزار عبد الله الضمور بعض من هذه الخصائص في الزهد في الشعر العباسي، بقوله: "تميزت المقطوعات الزهدية المنفصلة لهذا الغرض وحده، أو من خلال الأبيات المبعثرة بين القصائد الطويلة في الموضوعات المختلفة، بعدد من المظاهر المشتركة"[1].ويفصل هذه الخصائص بقوله أيضا: "يمكن دراستها من خلال بساطة اللغة والألفاظ ووضوحها، واستخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، وفي ألوان البديع من جناس وطباق وحسن تقسيم، أو في الصورة الشعرية بألوانها المتعددة"[2]؛ ولا شك أن هذه الأساليب تشكل مجموعة من الأسس البلاغية أو المعايير اللغوية التي لا ينهض الشعر إلا بها، ولا تقوم بشعريته إلى على أساسها.

وفيما يلي نماذج شعرية من موضوع الزهد توضح خصائصه الفنية وتبرز جماليته البلاغية.:

1- بساطة اللغة والألفاظ:بساطة اللغة سمة من سمات الشعر الموجه إلى فئة كبيرة من المجتمع المتلقي ويصفها الدكتور نزار عبد الله المور بأنها: "فئة تلازم شعر الزهد منذ نشأته ذلك أن هذا اللون من الشعر تتطلب طبيعته هذه السهولة والبساطة، فهو ليس لفئة خاصة من الناس كالأمراء والأدباء والشعراء، وإنما هو شعر يريد الوصول إلى الناس جميعا، وحتى يفهمه الناس على اختلاف بيئاتهم وأفكارهم وطبقاتهم، كان لابد من استخدام الألفاظ السهلة المأنوسة، والتراكيب الواضحة"[3].إن البساطة بهذا المفهوم تعتمد على تحديد المتلقي ورتبته الاجتماعية والثقافية، وعلى الاستخدام اللغوي في حاليته: الافراد والتركيب، وطبعها بطابع السهولة والوضوح.

ومن نماذج الوعظ بذكر الموت، قول المتنبي:[4]

أَرَقٌّ عَلى أَرَقٍ وَمِثلِيَ يَأرَقُ ... وَجَوىً يَزيدُ وَعَبرَةٌ تَترَقرَقُ
أَبَني أَبينا نَحنُ أَهلُ مَنازِلٍ ... أَبَداً غُرابُ البَينِ فيها يَنعَقُ
نَبكي عَلى الدُنيا وَما مِن مَعشَرٍ ... جَمَعَتهُمُ الدُنيا فَلَم يَتَفَرَّقوا
أَينَ الأَكاسِرَةُ الجَبابِرَةُ الأُلى ... كَنَزوا الكُنوزَ فَما بَقينَ وَلا بَقوا
مِن كُلِّ مَن ضاقَ الفَضاءُ بِجَيشِهِ ... حَتّى ثَوى فَحَواهُ لَحدٌ ضَيِّقُ

---

[1]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص186.
[2]- المرجع نفسه، ص 186.
[3]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص186.
[4]- المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص28-29.

خُـــــرسٌ إذا نـــــودوا كَأَن لَـــــم يَعلَمـــــوا ... أَنَّ الـــــكَلامَ لَهُـــــم حَـــــلالٌ مُطلَـــــقُ
وَالمَـــــوتُ آتٍ وَالنُفـــــوسُ نَفـــــائِسٌ ... وَالمُســـــتَغِرُّ بِـــــما لَدَيـــــهِ الأَحمَـــــقُ
وَالمَـــــرءُ يَأمُـــــلُ وَالحَيـــــاةُ شَـــــهِيَّةٌ ... وَالشَـــــيبُ أَوقَـــــرُ وَالشَـــــبيبَةُ أَنـــــزَقُ
وَلَقَـــــد بَكَيـــــتُ عَـــــلى الشَـــــبابِ وَلِمَّـــــتي ... مُســـــوَدَّةٌ وَلِـــــماءِ وَجهِـــــيَ رَونَـــــقُ
حَـــــذَراً عَلَيـــــهِ قَبـــــلَ يَـــــومِ فِراقِـــــهِ ... حَـــــتّى لَكِـــــدتُ بِـــــماءِ جَفـــــنِيَ أَشرَقُ

نلاحظ أن المتنبي يختار لقصيدته ألفاظا مألوفة ليس فيها صعوبة ولا غرابة ينفر منها المتلقي، فهي كما يصفها الدكتور نزار الضمور: "تجري على نحو من البساطة والسهولة دون تكلف أو تصنع، ويطوف بنا مع الدنيا، والموت، وذهاب السابقين، ونهايتهم جميعا إلى القبر، ثم يقارن بين الشيب والشباب، فنلاحظ جمال الألفاظ التي اختارها، مع حسن السبك في تركيب عباراتها دون غموض أو تعقيد"[1]؛ فهذا هو الطابع الفني الذي يتصف به شعر الزهد عند المتنبي، وعند معاصريه من شعراء الزهد في العصر العباسي. فلا يحتاج إلى شروح لفهمه في ألفاظه ومعانيه.

2- استخدام الأساليب الإنشائية: يكثر شعراء الزهد من الأساليب الانشائية ذات الواقع الخطابي، ويعدها الدكتور نزار عبد الله الضمور: "من الظواهر التي تلازم شعر الزهد، ذلك أن الشاعر يقترب من الناس ويخاطب قلوبهم، ويبحث عن أساليب التأثير المباشر في نفوسهم وعقولهم، فيستخدم أساليب النداء والاستفهام والتعجب"[2]، وتسمى هذه الأساليب الانشائية الأساليب الانفعالية، لأنها تجعل المتلقي ينفعل مع المخاطب أو الشاعر. وفيما يلي بعض الأساليب المميزة لشعر الزهد، وهي:

أ- النداء: ومنه قول الشاعر أبي فراس الحمداني في مقطوعة يرثي فيها نفسه وينادي ابنته، فيقول:[3]

أبنيـــــــــــتي لا تحـــــــــــزني ... كل الأنام إلى ذهـــــــــــاب
أبنيـــــــــــتي صـــــــــــبرا جميـــــــــــلا للجليـــــــــــل مـــــــــــن المصـــــــــــاب

ومن النداء، قول الشاعر الزاهد ابن المبارك:[4]

يا جاعـــــــــــل الديـــــــــــن له بازيا ... يصـــــــــــطاد أمـــــــــــوال المســـــــــــاكين
احتلـــــــــــت للدنيـــــــــــا ولذّاتهـــــــــــا ... بحـــــــــــيلة تـــــــــــذهب الديـــــــــــن
وصرت مجنـــــــــــونا بهـــــــــــا بعـــــــــــدما ... كنـــــــــــت دواء للمجـــــــــــانين

ومنه النداء في قول أبي العتاهية:[5]

أيهـــــا ذا النـــــاس مـــــا حـــــل بـــــكم ... عجبـــــا مـــــن ســـــهوكم كل العجـــــب

---

[1]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص187.
[2]–المرجع نفسه، ص 191.
[3]- أبو فراس الحمداني: ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدويهي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص59.
[4]- شمس الدين السخاوي: الجواهر والدّرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر، تح. إبراهيم ياجس عبد المجيد، (ط1)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1999، ج2، ص ص621-622.
[5]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص23.

أســـــــــــقام ثم مـــــــــــوت نازل ثم قـــــــبر ونشـــــــور وجلـــــــب

تأتي أساليب النداء على حسب حالات المنادى، قربا وبعدا، وهذا ما يدل عليه اختلاف أدوات النداء في الأبيات الشعرية المذكورة، فعندما كان المنادى هي ابنة الشاعر استعمل الهمزة (أبنيتي)، وعندما كان المنادى معينا وظف ابن المبارك الياء: (يا جاعل الدين)، وعندما كان المنادى غير معين وعلى العموم استخدم أبو العتاهية الصيغة: (أيُّهذا – أيها ذا)، وهي تختلف في درجة وقعها على المنادى قوة وضعفا، لكن دورها في الغالب هو التنبيه على أمر عظيم، يفسره الكلام الذي بعده.

ب- الاستفهام:الاستفهام من الأساليب الإنشائية التي يوظفها الشعراء العباسيون في شعر الزهد. وقد يأتي مع الأساليب الأخرى كالنداء والتعجب وغيرها[1]. وللاستفهام أثر كبير في نفوس المتلقين، فيبلغ الشاعر أغراضه التواصلية في الوعظ والنصح. ومن الاستفهام قول الصنوبري:[2]

وإلا فـــــــأين الأنبيـــــــــاء محمـــــــــد وعيسى ـــ ومـــوسى قـــبله وأخـــو مـــوسى
وأيـــن ســـليمان بـــن داوود وأيـــن مـــن حـــوت عـــرش بلقـــيس يـــداه وبلقيســـا
أصـــابت ســـهام المـــوت هـــودا وصـــالحا ولوطـــا ونوحـــا قـــد أصـــابت وإدريســـا

ومن الاستفهام قول أبي العتاهية:[3]

لدوا للمـــــــوت وأبنـــــوا للخـــــراب فكلـــــكم يصـــــير إلى ذهـــــاب
لمـــن نبـــني ونحـــن إلى تـــراب؟ نصـــير كـــما خلقنـــا مـــن تـــراب

تسيطر على أبي العتاهية فكرة الموت والخراب والفناء، وهي "رؤية شمولية من خلال استخدامه لواو الجماعة: ولفظة (كل) الدالة على العموم فضلا عن دلالة اللام في قوله (للموت) على العاقبة، لأن الموت عاقبة الجميع، ثم يتساءل: (لمن نبني؟). وليس هناك مسؤول يتوجه إليه الشاعر بالاستفهام، ولا سائل إذ الشاعر غائب وراء تعبيره. ولا يسمح الاستفهام هنا بجواب"[4]؛ فالمقصود من الاستفهام في هذا البيت هو ما يديه من أغراض بلاغية تستفاد من سياق الكلام توحي بالتعجب والحيرة التي أصابت الشاعر بعد طول تأمل فيما يخلفه الموت على حياة الناس وعلى منازلهم.

جـ- التعجب:التعجب من الأساليب الانشائية التي يوظفها شعراء الزهد في قصائدهم الوعظية، شأنه شأن الأساليب الأخرى، ولهذا يعد ظاهرة فنية تميز شعر الزهاد في القصائد والمقطوعات[5]. ويؤدي التعجب أغراضا بلاغية كثيرة، فضلا عن أثره في تعميق معاني الزهد في نفوس المتلقين له. ومنه قول أبي العتاهية:[6]

مـــا أقـــرب المـــوت مـــن أهـــل الحيـــاة ومـــا أعجـــى اللبيـــب بحـــس القـــول والعمـــل

---

[1]- ينظر، نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص191.
[2]- الصنوبري: ديوان الصنوبري، تح. إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص 169.
[3]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص33.
[4]- سعدية أحمد مصطفى: البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص65.
[5]- ينظر، نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص191.
[6]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص336.

والمـــــوت مدرجـــــة للنـــــاس كلهـــــم قصـــــدا إليـــــه بكـــــره مجمـــــع الســـــبل
مـــــا أحســـــن الديـــــن والدنيـــــا إذا اجتمعـــــا وأقـــــبح الكفـــــر والافـــــلاس بالرجـــــل

حيث يستعمل صيغة التعجب أربع مرات، (ما أقرب الموت!)، (ما أحجى!)، (ما أحسن!)، (ما أقبح!). وقد جاءت كلها على صيغة: ما التعجبية والفعل الماضي المبني على الفتح، ولهذه الصيغ دورها في إثارة الانتباه[1].

ويقول أيضا:[2]

مـــــا للجديـــــدين لا يـــــبلى اخـــــتلافهما وكل غـــــض جديـــــد فيهـــــا بال

و هذا الأسلوب التعجبي من حال "الليل والنهار" اللذان لا يبليان على رغم طول تعاقبهما: (ما للجديدين لا يبلى اختلافهما) وكل ما سواهما يبلي ويزول، هو في الحقيقة ما يزيد من زهد الشاعر في هذه الدنيا، لا شك أن التعجب في شعر **الزهد** عنصر أساسي من عناصر الأسلوب وسمة أساسية من سماته، وأداة من أدواته التي يوظفها في مخاطبة الناس ووعظهم.

د- التكرار: تكثر ظاهرة التكرار في شعر الزهد، وتتعدد أشكال التكرار بشكل يجعل منه سمة مميزة للأساليب البلاغية، وبخاصة الخبرية والانشائية، ويعد التكرار من أساليب التأثير المباشر في نفوس وعقول المتلقين[3]. وحرصا من الشاعر على إقرار المواعظ وتثبيتها في القلوب يوظف التكرار، "لأنه يوفر له خاصية مهمة من خصائص الخطابة الوعظية بحيث نراه وكأنه يريد أن يقرع الأذن بتكرار لفظة بعينها من أجل تنبيه السامع أو زجره أو إبعاده عن الصدوف أو الملال"[4].
ومن نماذج التكرار في شعر الزهد، قول أبي العتاهية:

أي يـــــوم يـــــوم الســـــباق وإذ أنـــــ ـــــت تنـــــادي فمـــــا تجيـــــب المنـــــادي
أي يـــــوم يـــــوم الفـــــراق وإذ نفـــــ ـــــسك تـــــرقى عـــــن الحشـــــا والفـــــؤا
أي يـــــوم يـــــوم الفـــــراق وإذ أنـــــ ـــــت مـــــن الـــــنّزع في أشـــــد الجهـــــاد
أي يـــــوم يـــــوم الصرـــــاخ وإذ يلطمـــــ ـــــن حـــــرَّ الوجـــــوه والأســـــاد
أي يـــــوم نســـــيت يـــــوم الـــــتلاقي نســـــيت يـــــوم المعـــــاد
أي يـــــوم يـــــوم الوقـــــوف إلى اللّـــــ ـــــه ويـــــوم الحســـــاب والإشـــــهاد
أي يـــــوم يـــــوم الخـــــلاص مـــــن النّـــــ ـــــار وهـــــول العـــــذاب والأصـــــفاد
كم وكم في القبـــــور مـــــن أهـــــل مـــــلك كم وكم في القبـــــور مـــــن قـــــوّاد
كم وكم في القبـــــور مـــــن أهـــــل الدنيـــــا كم وكم في القبـــــور مـــــن زهـــــاد
لـــــو بـــــذلت النصـــــح الصـــــحيح لنـــــفسي لم تـــــذق مقلتـــــاي طعـــــم الرقـــــاد
لـــــو بـــــذلت النصـــــح الصـــــحيح لنـــــفسي همـــــت أخـــــرى الزمـــــان في كل واد

---

[1]- ينظر، أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 202.
[2]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص 328.
[3]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص 191.
[4]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، ص199.

القارئ لهذه القصية يلاحظ طغيان التكرار للأساليب الانشائية مثل الاستفهام:

- أي يوم يوم السباق؟

- أي يوم يوم الفراق؟

- أي يوم يوم الفراق؟

- أي يوم ... يوم الخلاص؟

- أي يوم ... يوم التلاقي؟

- أي يوم يوم الوقوف؟

- أي يوم ... يوم المعاد؟

هذا التكرار للاستفهام يدفع السأم ويوقظ ذهن المتلقي لسماع الوعظ. والتركيز على وصف مشاهد متتابعة لمحطات غيبية تزيد من قوة الوعظ والنصح، ويكرر قوله:

- كم وكم في القبور؟

- كم وكم في القبور؟

- كم وكم في القبور؟

حيث تشكل ظاهرة أسلوبية لخطيب بأسلوب شعري: "ويصوره لنا واقفا مخطب في الناس يعظهم ويزجرهم ويذكرهم بالموت والقبور وما بعد الموت والقبور"[1] . وبهذه الكيفية يمضي الشاعر في تكرار الأساليب المختلفة. ويصبح سمة فنية تميز شعر الزهد العباسي، وبخاصة في شعر أبي العتاهية.

3- الخيال: الخيال عنصر من عناصر التشكيل الفني في النص الأدبي، سواء أكان شعريا أو نثريا، وهو لا يقل أهمية عن اللغة والأسلوب. ويعد التصوير الفني أو الخيال سمة غالبة على الشعر، ومقوما من مقوماته، وخصيصة من خصائصه، وفي شعر الزهد يعتمد الشاعر على الخيال من أجل تشكيل الصورة في ذهن المتلقي. ومن نماذج الخيال في شعر الزهد العباسي، قول أبي العتاهية:[2]

بـــكى شجـــوه الاســـلام مـــن علمائـــه ... فمـــا اكترثـــوا لمـــا رأوا مـــن بكائـــه
فـــأكثرهم مســـتقبح لصـــواب مـــن ... خالفـــه مستحســـن لخطائـــه
فـــأيهم المرجـــوّ فينـــا لدينـــه ... وأيهـــم الموثـــوق فينـــا برأيـــه

[1]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه، ص 200-201.
[2]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص15.

المتأمل لهذه الأبيات الشعرية يلاحظ أن ألفاظها فيها استعارات تشخيصية، حيث "يجعل أبو العتاهية من الاسلام شخصا يبكي على علماء الاسلام ومفكريه الذين تنكبوا جادة المنهج والسبيل القويم ولكن هؤلاء صمّوا آذانهم عن الاستماع هذا النداء"[1]. ويجسم الموت، فيقول:[2]

المنـــــايا تجـــــوس كل الـــــبلاد والمانيـــــا تبيـــــد كل العبـــــاد
لتنـــــالن مـــــن قـــــرون أراهـــــا مثـــل مـــا نلـــن مـــن ثمـــود وعـــاد
هـــن أفنـــين مـــن مـــضى مـــن نـــزار هـــن أفنـــين مـــن مـــضى مـــن إياد
هـــل تـــذكرت مـــن خـــلال مـــن بـــنى الأصـــفر أهـــــل القبـــــاب والأطـــــواد

ويشخص الهوى، فيقول:[3]

قاتـــــل الهـــــوى إذا دعـــــاك لفتنـــــة قاتـــــل هـــــواك هنـــــاك كل قتـــــال
وإذا عقلـــــت هـــــواك عـــــن هفواتـــــه أصـــــلقته مـــــن شـــــين كل عقـــــال

ففي هذين البيتين "يجسد أبو العتاهية الهوى بصورة إنسان، يتميز بالشر، وينبغي محاربته والفتك به، لأنه يدفع إلى الفتنة والأخطاء، وحينما تفعل ذلك تكون قد ضبطته وعقلته وقيدت حركاته المشينة"[4]. ويجسد التقوى في هيئة الماء العذب، فيقول:[5]

وإذا ظمئـــــت إلى التقـــــى أســـــقيته مـــــن مـــــشرب عـــــذب المـــــذاق زلال

ويجسد الهدى في صورة إنسان وقور، من أطاعه سلم وغنم ولبس حلة الأعمال الصالحة، يقول أبو العتاهية:[6]

وإذا ســـــكنت إلى الهـــــدى وأطعتـــــه ألبســـــت حـــــلة صـــــالح الأعـــــمال

ويخاطب قبر زائدة بن معن الشيباني كأنه إنسان، فيقول:[7]

ألا يا قـــــبر زائـــــدة بـــــن معـــــن دعوتـــــك كي تجيـــــب فـــــلم تجبـــــني

هذه بعض ملامح الخيال في شعر الزهد في العصر العباسي، وهي كثيرة متنوعة؛ فيها المجاز وفيها التشخيص عن طريق الاستعارة، وغيرها من الأشكال البلاغية التي تحرك الخيال، فتجعل من الأمور المعنوية وكأنها شخوصا تتكلم وتتحرك.

---

(1)- حسن البكور: دراسات في الشعر العباسي، الرؤيا والتشكيل، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص35.
(2)- أبو العتاهية: أبي العتاهية، ص 131.
(3)- عبد العزيز السلمان: مجموعة القصائد الزهديات، ط1، مطابع الخالد، الرياض، 2008، ج2، ص 276.
(4)- حسن البكور: دراسات في الشعر العباسي، ص36.
(5)-
(6)-
(7)-